من مظاهر التجديد
لدي
الجاحظ والمبرد

أ.م / دكتـــــــورة
وجيهة محمد المكاوى
جامعة الأزهر المنصورة

توطئة

قد يتوارد في أذهان كثير من جمهور المثقفين أن عصور المسلمين الأولى كانت بطبيعة تكوينها أميل إلى المحافظة والانغلاق وأن ما قدمته حضارتهم خلال قرونها الأولى كان ينصب في قالب تقليدي عقيم ينظر للماضي ويقلد اللاحق فيه السابق ، ولا يستطيع أن يخلع ربقة التقليد والمتابعة أو يخرج على الإطار الذي رسمه الأسلاف ، ووضعوا له المعالم والأسس !!.

والحق أن هذا التصور ــ وإن وجدت له مبرراته ودواعيه ــ ينبغي أن نتوقف فيه ، ويجب أن يعيد الباحثون النظر في تراث المسلمين الفكري في مختلف جوانبه .

وأنا هنا أركز على النتاج الفكري لعلمين من أعلام مدينة البصرة في ميدان النقد الأدبي والتنظير الفني للأساليب الأدبية والموازنة بين أجناس الأدب وفنونه وهما : أبو عثمان الجاحظ ، وأبو العباس المبرد ، وأولهما (وهو الجاحظ) طبقت شهرته الآفاق كاتبا أديبا ، وناقدا أريبا ، ومبدعا في ميادين شتى ، والآخر (وهو المبرد) اقتصرت شهرته على التدقيق في علوم اللغة ، وسأميط اللثام ــ في هذه الدراسة الموجزة ــ عن جانب آخر من جوانب مهاراته وسبقه في ميدان النقد الأدبي والبحث البلاغي .

وتجدر الإشارة إلى أنني سأكتفي في هذا السياق بالإشارات الدالة ، والإلماحات الكاشفة ؛ خشية الإطالة والاستطراد الذي ربما لا يتسع له المقام في مثل هذه الوريقات المحدودة ، وسأدل القارئ على المظان التي يجد فيها طلبته إذا أراد الاستزادة .

موازنة بين الجاحظ والمبرد

اشتركا الأديبان فى النهل من الثقافات المتعددة والأفكار الجديدة التى شاعت وسادت فى العصر العباسى ، ولا شك إن البيئة البصرية كانت لها خصوصية وعبقرية أفاضت على قاطنيها إذ كانت مهبط للأدباء واللغويين ، ومحل الإبداع العقلى بين دفتى الكتب فعصارة الذهنية الإنسانية أُودعت مكتباتها .

تناول الأديبان بعض القضايا الشائعة واختلفت طريقة عرضهما فعرضها الجاحظ بشكل وأداء مغاير للمبرد من نظرة فنية فلسفية وجمل قصيرة وأسلوب يلتمس الترويح عن المتلقى ، بينما المبرد يركز على عافية اللغة ويميل للقديم دون إجحاف حق المجيدين المحدثين .

اختلفت القضايا التى استحوذت على اهتمامهما وأخذت النصيب الأكبر من إبداعهما بينما اهتم الجاحظ بالحياة والإحياء يلتقط الطريف ويستهويه التليد ويسجل كل ذلك موجدا للنثر مكانا فى الحياة اذ أنزله من على أرفف الكتاب والأدباء الى طريق الناس يتلقفونه و يستعملونه ، نجد المبرد لثقافته اللغوية المتينه تعتلى كتاباته الاهتمام بالمسائل اللغوية وإيرادها بكثرة ويلتمس الحجج فى تعليلها مع الاهتمام بالقديم قد يورد الحديث كما فعل مع الشاعر الفضل ابن جعفر إذ قال عن شعره " وان لم يكن بحجه لكنه أجاد " فهو ان لم يحتج به لكنه حاز إعجابه .

النظرة الفلسفية والرؤية الاستيعابية المتشعبة حكمت أراء الجاحظ حتى قال عن إحدى كتبه – الحيوان – : أخذ من طرف الفلسفة .بينما محض اللغة صحيحها وزائفها محط اهتمام المبرد ولا يخطىء ذلك عين خبير

العقل الاعتزالى القادر على الانتصاب عمود فقرى يتفرع منه الاطراف يسيطر ع فكر الجاحظ .. ومن ثم على منجزاته النقدية والادبيـــة فقـــد يتحدث فى موضوع ويعطف على اخر ويقبض على فكره مغيرة وينساب الى رؤية لم تكن مطروحة.. كل ذلك ولا يزال ممسكا بفكرته الاولى فـــى استطراد محمود – احيانا – وقد يفلت تركيز المتلقـــى فيعـــاود القـــراءة ليسترجع الموضوع ، اما المبرد فقد يعرض الفكره فتتزاحم التـــداعيات المرتبطة بها فيشير لها فى عجالة لا تنسينا الموضوع الاساسى .

فهو ان كان قسيمه فى الاستطراد الا انه ليس على الدرجة نفسها من الاطاله و الاطناب

دعما الأديبان المكتبة العربية بمزخور فكرى ولغوى يجلـــى العقليـــة العربية الممتلئة فكرا وكان كل منهما دال على ثقافته وينابيعـــه الأولـــى فنتاجه بمثابة فرع إنبثق عن أصل لغوى أو فلسفى .

مـدخـل تاريخي :

يجمل بنا قبل أن ندخل في صلب دراستنا أن نلم بالعصر الـذي عاش فيه كل من الجاحظ والمبرد ، ومما يسهل وصولنا إلى تلك الغايـة أن الرجلين كليهما عاشا في زمن متقارب ، بل ونشآ في بيئـة مكانيـة واحدة هي مدينة البصرة بين القرنين الثاني والثالث للهجرة . فما أبـرز الملامح المؤثرة فـي هذه النشأة والتكوين الثقافي لكلا الرجلين ؟ ومـا أصداء تأثير الزمان (العصر) والمكان (البيئة) في كل منهما ؟.

نستطيع القول أن الرجلين عاشا في العصر العباسي بمفهومـه الواسع وفي أخصب فتراته على الإطلاق ، وهو المائة الأولى وما بعدها بقليل ، أي أن تكوينهما الثقافي والفكري والمجتمعي بل والعروبـي لـم يتأثر بمؤثرات سلبية توالت على المراحل التالية لتـك التـي اقتنـصها الرجلان ولعبت الأقدار دورا ليس لأي منهما أثر فيه.

ومعلوم أن العصر العباسي قد امتد من سـنة ١٣٢ هـ إلـى ٦٥٦ هـ . وقد زخر بالأحداث الجسام التي انعكست على الحالة الفكرية لدى دولة الخلافة الإسلامية ، وأضفت على الذهنية العربية العديد مـن طرائق التفكير ، ونظم الحياة مما لم يعرف من قبل فقد ارتفع فيه الخط البياني لنمو الحياة حتى بلغ الذروة .

فالعصر العباسي بما اتسم به من زيادة الرقعة المكانيـة التـى تدين بالإسلام وما ضمته من العناصر البشرية التى تنتمي إلى أجنـاس متعددة من الفرس والروم والبربر وغيرهم من الأجناس التي انـضوت تحت لواء الإسلام ، وجلبوا معهم فكرهم ورؤاهم وطرائقهم في التفكيـر ونهجهم الحياتي .

وقد حدث مزج بين الثقافة الإسلامية الوافدة ... والثقافة العربية الأصيلة ، تولدت عنه ثقافة مستنيرة عليها مسحة واضحة من سماحة الإسلام وروحانياته وهديه ، وتوجيهه لإعمال العقل والانفتاح على حضارات الدنيا .

ولا ريب أن تلك الحضارة الوليدة قد بسطت مزيدا من التأثير على مختلف الأنشطة الحياتية ، والأدب أكثر الأنشطة الإنسانية في سرعة تأثره بالأجواء المحيطة ، فالألفاظ العربية داخلها ألفاظ هندية وآرامية وسريانية ، والمعاني تشعبت والبيئة اللغوية والأدائية للأجناس الأدبية داخلها الجديد من الأفكار والطرق الملقحة بفكر الآخرين كل ذلك ... أبان عن تنوير العقل العربي وقدرته على استيعاب الآخر ليس استيعاباً منفصلاً بل استيعاب مقتدر استطاع الأدباء إذابة هذه الأشياء الوافدة في الثقافة العربية وإضفاء صبغتها عليها .

لقد أفاض الباحثون في تاريخ الحضارة الإسلامية ــ فيما يتصل بالعلوم والثقافات ــ في الكلام عن العصر العباسي والمؤثرات المتنوعة التي تركت بصماتها عليه ، وتقسيمات تلك المراحل وسمات كل منها ..إلخ ، وحسبي هنا أن أقصر تناولي على ما يخص العلمين اللذين نحن بصدد الحديث عن نتاجهما الفكري في سياق بحثنا هذا .

فى منتصف القرن الثاني أذنت الحياة العباسية باستبدال موقعها وتحول الحياة البصرية إلى بغداد ، فقد كان هناك محرك قوى للأحداث بالحمراء والموالي . إذ استطاع الفرس بسط نفوذهم وفرض سيطرتهم على مختلف النواحي من أرقاها إلى أدناها فمجلس المناظرات والسوق تحت إمرتهم ، وإذا كان الزمان هو منتصف القرن الثاني الهجري فإن المكان هو أعقد بقعة فى العالم فقد ضمت طوائف وجنسيات شكل بعضها

أقلية وآخرون أكثرية وتوجهوا بمختلط أفكارهم ومبادئهم إلى الشباب وهو شباب مدرك واع يعترف بفضل الأجناس الأخرى مع الإقرار بتمايز العرب وتفوقهم ، فهناك الزنج والروم والزط ، وأهل السند والبربر أو نبط لسان عربي ودماء أشورية أوعدنانية أو قحطانية

ونظراً لطول فترة الخلافة العباسية حيث بسط التاج العباسي نفوذه ما يقرب من خمسة قرون ١٣٢ – ٦٥٦ هـ فقد قسمه الباحثون إلى عصور ، أو حقب تاريخية منفصلة .

فهناك العصر العربي لأن الخلفاء كانوا عربا وقد شهد تطويرا وتجديدا في مناحي الحياة وأنشطتها ، وقد كان للعنصر الفارسي نفوذ بارز فيه ، ثم عصر النفوذ التركي ، وقد تركت هذه التجاذبات بين الأجناس آثارا غريبة على المجتمع العربي فامتزج الفكر العربي بغيره وواجهت الذهنية العربية مثيلاتها إبداعاً وتقدما بفضل التنوير القائم على الترجمة ، التي قويت وشجع الخلفاء والرواد عليها ، ومشهور أن الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣) كان يعطي وزن ما يترجم ذهباً كذلك فعل المأمون (١٩٨ – ٢١٨) والعصور التاريخية فى حياة أمة ما هي التوقيتات التى يجمد بعدها الزمن وتتحرك مختلف الأنشطة من التقييم والتقيد رغم النظر بعين الفحص لما حواه من أحداث وما تولد عنه من مظاهر.

والتنوير والإطلاع وقفا وراء وجود قضايا كبرى شغلت الآراء فى العصر العباسي الثاني مثل الدعوة إلى التجديد لمواكبة الذهنية المنفتحة ، وما استتبعها من الصراع بين القديم والجديد وإن كان وجودها مع متزعميها أبي تمام والبحترى يعد إرهاصة فى القرن الثاني ، لكنها استكملت فى القرن الثالث .

ولجأ آخرون إلى تقسيم قائم على أسس التغيير التى لحقت المنجز الأدبي إذ رأي أن أقساماً ثلاثة تتنازعه :

= أدب الثورة التجديدية الذي بدأ ببشار وانتهي بأبي تمام وأضاءه عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون بكتاباتهما .

= أدب الحركة المعاكسة بدأ بظهور أبي تمام وانتهي بظهور المتنبي ومن أهم كتابه الجاحظ والمبرد ، وهما ما اكتفيت بالاستشهاد ببعض من نماذجهما التى تميط اللثام عن الذهنية العربية التى وإن احتفظت بخصائص تكوينية إلا أنها تربة جيدة لاستقبال ما استتب فيها حيث تضفي عليه خصائصها وسماتها ... وقد سار الأدب بوجودهما وغيرهما ذا نزعة مميزة .

= أدب الاستقرار والتدرج نحو الصنعة والزخرف يبدأ بظهور المتنبي وينتهي بنهاية البهاء زهير ٥٨١ – ٦٥٦ هـ [1] ولا شك أن المستنيرين الجدد حاولوا الوصول إلى مكامن التأثير فى المجتمع وانتقلت مراكز الإشعاع والتنوير من أماكنها القديمة بمكة والحجاز والمدينة ودمشق إلى معاقل جديدة استطاعت تطوير الإبداع الأدبي بتغذيته بشرايين جديدة من المترجمات والثقافات الوافدة.

التنوير الأدبي ورموزه في هذا العصر :

خطا الأدب في هذا العصر خطوة أخرى نحو الارتقاء والتفرع فبدأت علومه بالاستقلال بعضها عن بعض . وكانت فى العصر الماضي مختلطة يدرس الأديب النحو واللغة والأخبار والأمثال معاً . وقل من تفرغ لواحد منها إلا النحو فإنه استقل فى ذلك العصر .

---

[1] تاريخ الأدب العربي حنا الفاخورى بيروت صـ ٣٥٨ وما بعدها بتصرف .

وظلت سائر علوم الأدب مختلطة . ففى هذا العصر أخذ علم اللغة بالاستقلال وظهر علماء اشتغلوا بتعريف الألفاظ واشتقاقها ومعانيها وترتيبها على الأبجدية تمهيداً لوضع المعاجم التى لم تظهر ناضجة إلا فى العصر العباسي الثالث .

فالأدب هنا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١. الأدب كما هو ويدخل فى الأخبار والأمثال والأشعار وغيرها .
٢. النحو .
٣. اللغة .

ولنفرد لكل منها توضيحا كاشفا !

كان لوجود الخلافة فى بغداد الأثر الكبير فى النهوض بالأدب والارتقاء بأجناسه وفنونه فقد بعد الشعراء عن جو التنافس والخصومة الذي أشعلته الأغراض السياسية بين البصرة والكوفة لوقوع بغداد وسطاً بين البداوة والحضر لذا كثر الشعراء وتنوعت موضوعاتهم .

ولأن الأدب نشاط إنسانى يصاحب الإنسان رفعة وضعة ، شمولاً وانحساراً ، قوة ووهنا .... ولأن العصر صبغ بالنشاط العقلي المغطي لكثير من النواحي الفكرية واكب الأدب ذلك فنرى عصا التغيير مسته فأكسبته علامتين بارزتين : السعة والعمق ... فكان للتواصل عن طريق أعلام الرواد كالجاحظ وابن قتيبة وغيرهما بالثقافات اليونانية والفارسية وغيرها فتح الأذهان وشحذ القرائح ودفع العقول إلى البحث والإطلاع والهضم ثم يستخرج المنجز المتأثر بتلك المراحل فريدا فى منهجه ، بديعا فى نظمه وتبدي ذلك فى أشياء .

أمتاز الأدب بها فى هذا العصر أهمها :

١. أنه كان فى العصر الماضي مقصوراً على النقل بلا تصرف وإنما كان هم الأديب أن يروى ما سمعه بالإسناد إلى الراوي أو سرد معانيه كما كان يفعل حماد والأصمعي وأبو عبيده .

فأصبح يتدبر تلك المرويات ويبني عليها أو يستنتج منها حكمة أو عظة كما فعل الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما .

والسبب فى ذلك اتساع خبراتهم وتعودهم النظر والتدبر بما أطلعوا عليه من كتب " الأدب التي نقلت إلى العربية من الفارسية والهندية وكتب المنطق وتحليل القياس ونحوهما عن اليونانية [١]

٢. نتيجة لتغير الحال لفساد الحكومة وتوالي النكبات على العلماء والمفكرين اتسع الفكر الداعي لنشر الحكم وأخبار الزهد والزهاد وأقوال الحكماء وسير رجال العدل والحزم التى يترتب عليها العظة والاعتبار مع الحث على الاقتداء بهم لرد الناس عن غيهم وتعزية المصابين والمظلومين فأخذوا يجمعون ذلك في كتب الأدب .

٣. اهتموا بجمع شتات أخبار العرب على اختلاف مواضيعها ومآخذها فى كتاب واحد أو بضعة كتب وترتيبها فى أبواب مبنية على الحكمة المستفادة كما فى الموشى والعقد الفريد .

٤. تغيرت وجهة الأدب فى نظر الأدباء فقد كان الغرض منه بالأكثر طلب الرزق فى دور الخلفاء بما كان لهؤلاء من الرغبة من الإطلاع على أخبار العرب وأشعارها وأمثالها فأصبح فى هذا العصر صناعة علمية فى الإنشاء والتأليف وقل المقتصرون عليها منهم .

---

[١] راجع تاريخ التمدن الإسلامي ١٥٢ ج ٣ وبعدها .

وانصرفت القرائح بالأكثر إلى الاشتغال فى النحو واللغة ولم ينقطع الانشغال بالأدب كاملاً إلا قليلون وقد اخترنا بضعة منهم غلب عليهم الاشتغال بالأدب مع اشتغالهم بفنون أخرى من التاريخ أو السياسة أو الشعر .

۞۞۞

أدباء العصر

زخر هذا العصر بكوكبة من حاملي مشاعل التنوير أخذوا على عاتقهم مهمة مهاجمة عناكب الجهل "والتجهيل " وأفاضوا فى استيداع الأوراق وفير معارفهم ، وكثيف رؤياهم ، وغزير آرائهم وتعد كتبهم التي بقيت وقدّر لها أن تنجو من الضياع ضياء فجر ... إذ فُقِد الكثير من مؤلفاتهم ولو بقيت لنقلت الذهنية العربية نقلة كبرى فى العلوم كافة ، ولما تعرضت لدعاوى الجمود والتخلف فتلك المؤلفات شاهدٌ حيٌّ على ثراء لغتنا ، وعمق فكرنا ، ورحابة أفقنا .

۞۞۞

الجاحظ نظرات وآراء

هو : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي بالولاء من أهل البصرة وهو من هو فى الفصاحة والبيان ، إمام الكتاب ، وهادي المفكرين ، أوغل فى القراءة فأمدته بمعين لا ينضب ويعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه – اشتهر بقبح خلقته وكان جده أسود اللون جمالاً لعمرو بن قلع الكناني .

وقد كان " غلاما يعيش ظروفاً مضطربة فى عصر تتشابك فيه القيم – على حد قول د / أحمد كمال زكى [1] .

وبلغ الجاحظ من الذكاء وجودة القريحة وقوة العارضة والتفكير المنظم ما جعله من كبار أئمة الأدب .

نشأ في البصرة وهي آهلة بالأدباء والنحاة ، وأصحاب اللغة ونبغ في ذلك كله . وبلغ خبره إلى المتوكل وكان يبحث عن من يؤدب ولده فاستقدمه إليه في سر من رأى . فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه ... وله أخبار كثيرة تتعلق بقبح منظره .

وأصيب فى أواخر أيامه بالفالج النصفي فكان يطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحس به من شدة برده !! . وكان قد اشتهر وذاع صيته فى العالم الإسلامي فتقاطر الناس لمشاهدته والسماع منه فلا يمر أديب أو عالم بالبصرة إلا طلب أن يرى الجاحظ ويكلمه وحينما طلبه الخليفة راغباً فى حديثه اعتذر قائلاً : (وما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل) .

وهو إمام الأدباء فى عصره وله أساليب ومذاهب وآراء فى الأدب واللغة خاصة به واشتهر بطريقة في الإنشاء تنسب إليه احتذاه فيها الادباء فعرفت باسمه .

فهو قدوة المنشئين وإمامهم فى هذا العصر كما كان ابن المقفع إمامهم فى العصر العباسي الأول .

يقول د / أحمد كمال زكى عنه (معلم وأديب قرأ لأرسطو وجالينوس ، وفيلمون ، وبطليموس ، وأحاط بحياة الفرس وأساطيرهم

---

[1] الجاحظ د/ كمال زكى صـ ٥ دار الكتاب العربي

وعرف الكثير من اليهود والنصارى تماماً كما لاحظ للعرب حياتهم وقصصهم وأخبارهم وتقاليدهم [1]

والجاحظ استطاع أن يوظف ما لا يرضى عنه وفرض عليه – وهو شكله ورقة حاله – إلى ما يرضاه ويقبل عليه مختاراً وهو تميزه وتفرده والإشارة إليه فحينما تضيق به الظروف يغلق عليه بابه ويلتهم ما يتساقط فى يديه من العلوم والمعارف . وحينما قال أستاذه الخليل مقولته الشهيرة " تكثر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ " رفض تلك المقولة قائلاً " بأن الموافقة قد تجوز من حيث المبدأ لأن الإنسان يستطيع فعلاً أن يدرب نفسه على استيعاب ما فى أي كتاب على رغم من موافقة إبراهيم بن سيار على تلك المقولة باعتبار أن"القليل وحده للصدر في حين أن القليل والكثير للكتب "[1]

مما دفع د / أحمد كمال زكى لتحليل ذهنية الجاحظ والوقوف على رؤيته للعلم " التجربة المستقاة من الذات بنفسها ، وعن طريقها ، من الاطلاع المستدام ورسالة العلم أيضاً فى فلسفة الجاحظ هي إرسال المعلومة إلى المتلقي بأي طريقة حتى لو كانت طريقة مزج الجد بالهزل الجاحظية :

وكان الجاحظ فضلاً عن ذلك من فضلاء المعتزلة جماعة المفكرين فى ذلك العهد تلقى العلم على أبى اسحق إبراهيم بن يسار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور وكان علم الكلام قد نشأ على أثر غلق باب الفلسفة والتحذير من الإيغال فيها .

---

[1] الجاحظ صـ ١٧٨ دار الكتاب العربي .

[1] المرجع السابق صـ ٢٢ بتصرف .

طالع الجاحظ كثيراً من كتب الفلاسفة وانفرد عن سائر المعتزلة بمسائل تابعه فيها جماعة عرفوا بالجاحظية نسبة إليه . ومن مذهبه أن المعارف كلها ضرورية وليس فيها شيء من أفعال العباد وإنما هي طبيعية وليس للعباد كسب سوى الإرادة .

۞۞۞

أهمية مؤلفات الجاحظ :

للجاحظ منهج لا يحيد عنه ... فهو يريد إرسال معلومته للمتلقي ويبغي إقبال المتلقي على سماعها ويتكلف ف ذلك ما شق علي غيره فتارة ينسب الكتاب لغيره إذا رأي عزوف الناس عنه ثم يقبلون عليه باعتباره راوية ... وتارة يخلط الجد بالهزل هرباً من ملل القارئ وتجنباً لسآمته ويحض على ذلك قائلاً : لو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجد في كل مقال .. لكان السفه الصراح خيراً لهم والباطل محضاً أردُّ عليهم ... ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه " [1]

وهو هنا يراعي نفسية المتلقي الملولة وعزوفها من الجد الصارم والحزم الذي لا يتخلف .

وهذا المنهج لا يحيد عنه أبو عثمان حتى فى كتابته فى موضوعات بعيدة عن التفكه والهزل كالرياضيات ، فهو يرى حتمية توشيح جدها باليسير من الهزل يقول الجاحظ :

---

[1] رسالة التربيع والتدوير / ٥٣ نقلاً عن العصر العباسي الثاني شوقي ضيف .

" ليس ينبغي لكتب الأدب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق الحر وعلى المعاني القمعية التى تستكد النفوس وتستفرغ المجهود وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل" وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فإن المختلفين مع الجاحظ قبل المتفقين معه يشهدون لحسن عرضه وبديع كتاباته يقول المسعودي وهو شيعي ــ وقد كتب الجاحظ رسالة للمأمون بأحقية العباسيين عن الشيعة في الخلافة ــ " كُتُب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ [1]

ثم يشهد له بامتلاكه حساً خاصاً وحرصاً على توصيل كلامه دافعاً له " إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة " .

ومع تفهمه لنفسية المتلقي تلك إلا أن ذهنيته كانت عقلانية لما ملئت به من علوم وفكر ومعارف مما حدا ببعض الباحثين بوسمه بفقر الخيال لم يكن بالرجل الفسيح الخيال ولا برجل العاطفة ولم يجد أمامه أحداً من المعاصرين ولا من اللاحقين يشبهه بل إن كثيرين من السلف من أهل صنعته حاولوا أن يقلدوه فكان مصيرهم الإخفاق الذريع ولعل الشيء الوحيد الذي يستطيع غيره من الكتاب أن يدافعوه عنه هو

---

[1] العصر العباسي الثاني صـ ٥٩٣ .

استخدام التراث العربي بلغة تحررت كثيراً من قيود الماضين مع الارتفاع بها إلى مستوي السلامة والإتقان [٢]

ورؤى الجاحظ قد تظهر جلية وقد تتوارى فيما ينقل من أخبار فحينما أورد الخطبة ــ التي رواها شعيب بن صفوان ، وزاد فيها البقطري وغيره ــ قالوا : لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولي له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك . فقال : ويحك ، ولم ؟ قال : لا أدرى قال : فوالله ما لهم بعدى إلا الذي يسوؤهم ؟ وأذن للناس فدخلوا فحمد الله وأثني عليه وأوجز ثم قال :

أيها الناس ، إنا قد أصبحنا في دهر عنود [١] وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد فيه الظالم عتوا ، ولا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه ، وكلال حده ، ونضيض وفره [٢] ومنهم المصلت لسيفه ، المجلب بخيله ورجله ، والمعلن بسره ، قد أشرط لذلك نفسه [٣] وأوبق دينه ، لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده ، أو منبر يفرعه [٤] ولبئس المتَّجر أن تراها لنفسك ثمناً ومما لك عند الله عوضا !! . ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا !! قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة إلى

---

[٢] د / أحمد كمال زكى الجاحظ صـ ١٧٩ .

[١] العنود : الجائر الطاغى .

[٢] النضيض : القليل : والوفر : المال .

[٣] أشرط نفسه للأمر : أعدها وهيأها . والإشراط : الإعلام بعلامة .

[٤] يفرعه : يعلوه .

المعصية . ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه ، وانقطاعٌ من سببه ، فقصرت به الحال عن أمله فتحلي باسم القناعة وتــزين بلبــاس الزهادة ! وليس من ذلك في مَراحٍ ولا مَغدى !! وبقــى رجــال غــض أبصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر !! فهم بين شريد ناد ، وخائف منقمع ، وساكت مكعوم وداع مخلص ، وموجع ثكــلان !! قد أخملتهم التقية ، وشملتهم الذلة فهم فى بحــر أجــاج ، أفواههـــم ضامزة ، وقلوبهم قرحة قد وعظوا حتى ملوا ، وقهــروا حتــى ذلــوا ، وقتلوا حتى قلوا !! . فلتكن الدنيا فى عيونكم أصغر من حثالة القــرظ ، وقراضة الجلمين ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم مــن يــأتي بعدكم !! فأرفضوها ذميمة فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم ".

ثم بعد ذلك عقب الجاحظ قائلاً :

" وفى هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب : منها أن الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس ، وفى الإخبار عما هم عليه من القهــر والإذلال ، ومــن التقية والخوف . أشبه بكلام على رضي الله عنه ومعانيه وحالــه منــه بحال معاوية ، ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك فــى كلامه مسلك الزهاد ولا يذهب مذاهب العباد وإنما نكتب لكم ونخبر بمــا سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم [1].

فالجاحظ قد رأى استحالة موقف معاوية بعــد أن كــان شــغوفاً بالدنيا متمسكاً بها صار زاهداً نابذاً لها وعلى الرغم ما فى الخطبة مــن أوجه بلاغية متعددة ، ونصح خارج من نفس خبــرت الأمــر وعلمــت

---

[1] البيان والتبيين ٢/٥٩ــ٦١ .

عواقبه ، وحسن تقسيم فى تصنيف الناس أربعة أصناف ، وإرشاد لما ينبغي فعله وما يجب تركه ، وغيرها إلى أن الجاحظ لم يعقب عليها باستفاضة ربما مرجع ذلك إلى الرغبة فى التخفيف والميل إلى التبسيط لأنه قال بعد ذلك :

فالقرب العهد بالفصاحة أو لأنه فى العصر العباسي والأذهان مثقلة بأطياف من المعارف والفنون ، وجداول من الكلام فإن الكلام آنذاك لم يكن بحاجة إلى تفسير ، وكانت العبارات خالية من الغموض أو الإيهام لذا فى تعقيبه على الخطبة شكك فى نسبتها إلى معاوية حيث أن المناسبة التى دعا معاوية الناس لها مختلفة عن صياغتها ومضمونها كذلك تصنيف الناس يحاكي تصنيف وعلى الرغم قيمة الخطبة لغوياً ومعنويا إلا أن الجاحظ اكتفي بالتعليق عليها قائلاً ... " قال أبو عثمان : قد ذكرنا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبه صدراً وذكرنا من خطب السلف رحمهم الله جملاً وسنذكر من مقطعات الكلام ، تجاوب البلغاء ومواعظ النساك ونقصد من ذلك إلى القصار دون الطوال ليكون ذلك أخف على القارئ وأبعد من السآمة والملل ثم نعود بعد ذلك إلى الخطب المنسوبة إلى أهلها إن شاء الله . ولا قوة إلا بالله " [1]

وقد أورد خطباً كثيرة لكنه لم يعقب عليها وكأنه رأى أن مهمتها المنوطة بها قد وضحت ولا تحتاج إلى مزيد شرح أو إضافة تفاصيل فقد أبانت عن نفسها وأنارت عن فكرتها .

يدلي الجاحظ برأيه المدعم بأقيسة وقضايا وآثار مروية .. فتشبعه بالمنطق ، وتعلمه الجدل ، أضفي على كتاباته إضافات فارقة فى

---

[1] البيان والتبيين جـ ٢ صـ ٦٦ .

الأسلوب وفى المعني ... ففى الأسلوب هنـــاك بـــسط فـــى العبـــارة ... والعبارة بها تقطيع صوتى وترادف موسيقي .

يقول أبوعثمان الجاحظ ... في رسالته عن الحاســد والمحــسود " وهب الله لك السلامة وآدام لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفـــع عنـــك الندامة " .

ويسير فى اقتدار بيِّن على المزاوجة والترادف واتبـــاع الـــشيء بمثله والقرين بقرينه " الحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضـــد الحـــق وحرب البيان ... فمنه تولد العداوة وهو سبب كل قطيعـــة ومنـــتج كـــل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفـــرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الخلطاء يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر ، ولو لم يدخل ــ رحمك الله ــ على الحاسد بعد تـــراكم الهجـــوم على قلبه واستمكان الحزن فى جوفه وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره وتنغيض عمره وكدر نفسه ونكد لذاذة عيشه إلا استـــصغاره لنعمـــة الله تعالي عنده وسخطه على سيده ما أفاضه من عبده ".

وإن كان السجع فهناك أيضاً تقطيعات دقيقة فقد تغير وجه النثر بوجود كتابات الجاحظ ، فقد كان فى العصر الأول قائماً علـــى الترســـل والإيجاز لكن سن الجاحظ سمات مغـــايرة ذات وقـــع وأثـــر فـــالازدواج والإطناب ميزا كتاباته حتى إنه ليسلخ فى المعني الواحد عبارات كثيـــرة من ابتداع مستحدث وابتكار ليس له فيما سبق مثيل – على حد قول د / السباعي بيومى [1] يقول فى فضل الكتاب وتحديد هـــدف القـــارئ مـــن قراءته " إنما هي رياضة وسياحة ، وسماع الألفاظ ضار ونافع ، فالوجه

---

[1] فى الأدب العربي جـــ ٣ صـــ ١٣٣ .

النافع أن تدور فى مسامعه وتغيب فى قلبه وتخيم فى صدره ، فإذا طـــال مكثها تناكحت ثم تلاقحت ، وكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتهـــا أطيـــب ثمرة ؛ لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتـــصبة ، ولا دالة على فقر ، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليـــه دون غيره ، وبين اللفظ إذا عشش فى الصدر تم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون استراقاً واغتصاباً فرق بيِّن " !! .

فالجاحظ فى حجاجه " يركب مثل هذا المركب فى كل مـــا يكتـــب ويؤلف ، كأنه يريد أن يغرب عن الناس دائماً بتفكيره ، فهو يخرج على مألوفهم ومعتادهم على حد قول د / شوقى ضيف [1] .

فهو ينشد الجمال فى الأداء ويركب وسائله من التوقيع الصوتي فى اللفظ وتعادل موسيقاه فى اللفظ والعبارة وكان يعمد لإيجاد نوع مـــن الترادف الفني ... ومن ناحية المعني كثير قراءات الجـــاحظ ، وغزيـــر معارفه أوجدت فى منجزاته الأدبية الشك ففي بداية حياته حينمـــا كـــان يبدع عملاً ما ينحله سهل بن هارون حتى يقبل عليه الناس ويشيع بينهم ، فلم يتقبلوا فكرة رجاحة عقله وصواب منطقه للنقيصتين اللتين حواهما قبح المنظر ورقة الحال فالجاحظ كان يسقط على القضايا الهامة ســـواء له أو لعصره يبسط طرحها ويتناول شرحها ليسيغها بشكل حاز الجمـــال الفني والمضمون الفكري فيسهل استيعابها .

يحشد لذلك تلوينات عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية فى تفكيـــره وأدائه لمعانيه متأثراً فى تلك النزعة سهلاً من طرف ، وبيئة المتكلمـــين التى تتشرب طرائقهم من طرف آخر. فالجاحظ استطاع الموازنة الجامعة

---

[1] الفن ومذاهبه فى النثر العربي صـــ ١٥٢ دار المعارف طـــ ٦

بين التلوينات العقلية والموسيقية " فتخرج أساليبه وقد التمعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق كما التفت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقي " على حد قول د/ شوقى ضيف [1]

وكان الجاحظ موسوعي الفكر ولا غرو فقد انتسب لجماعة شهر عنها الفصاحة والبلاغة حتى قيل عنها إن الكلام لهم دون سواهم وشيد بمنطقهم وطريقتهم " إن طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ وموازنة الشيء بالشيء والاعتماد على الجدل وكانت الذهنية لا قطة لما وقر وما سقط فقد كانت حافظتهم واعية للأشعار حتى إن المبرد قال " ما رأيت أفصح من أبي هذيل والجاحظ ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة ، شهدته فى مجلس وقد استشهد فى جملة كلام بثلاثمائة بيت " فتلك البيئة اللسِّنة والجدلة هي التى تلقف الجاحظ منها فصاحته وبيانه اللذين مكاناه من جني المال وسدِّ حاجاته لما أجراه عليه الكبراء – المأمون – ابن الزيات – ابن دؤاد – الصولي وغيرهم .... من أموال دفعت إليه لقاء كتاباته ومؤلفاته أو رواتب شهرية كما فعل الفتح بن خاقان وذلك حينما أبت نفسه الخضوع لنظم الدواوين وعلى قربه من كبار رجالات الدولة وجنيه ثمرة القرب – حماه لسنه وجد له من السقوط في هاوية الانتقام من الكبار فحينما ظفر به ابن دؤاد بعد تخلصه من ابن الزيات قال له مستجلباً سماحته " خفض عليك – أيدك الله – فوالله لأن يكون لك الأمر على خيراً من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن فى الأحدوثة من أن أحسن وتسيء ، ولأن تعفو عني فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى ..!! فعفا عنه " .

---

[1] الفن ومذاهبه فى النثر العربي صـ ١٥٢ دار المعارف صـ ٦ .

فهول الموقف لم يبهته ولأن البيان سليقته فالكلام يخـــرج منـــه مستوفى مقنعا تندمج فى صياغته القدرة على التحليل والتعليل بالقـــدرة على صوغ اللفظ وتحبيره والاتساع به حتى يؤدي ضروباً من التوقيـــع الصوتي والترادف الموسيقي – على حد قول د / شوقى ضيف [1] .

الرؤية الجاحظية:

ولسعة فكرالجاحظ وعمق ثقافته اصطلحت فـــى نفـــسه المعـــاني الغزار فى جدول المعرفة عامـــة ، وتـــشكلت رؤى عميقـــة للمجـــالات المتعددة فى السياسة والاجتماعيات والأجناس والأديان حتـــى إن ابـــن العميد قال إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة " ولم يقتصر على الثقافة العربية بل إن ثقافاته المتنوعة تقحـــم نفـــسها على مؤلفاته فما يكاد يتكلم فى موضوع بالعربية حتى تتزاحم المعلومات المستوحاة من الثقافات الهندية والفارسية واليونانية عن الفكـــرة علـــى يراعه فينظمها كلاماً تطير حتى الآفاق شهرته يعلم العقل أولاً ثـــم الأدب ثانياً ولعل ثبته الطويل فى أول حيوانه يكفينا التكرار ليعرفنـــا فـــصاحة وتوهج عقله فكتبه مرآة تنعكس عليها رؤيته الممـــدودة بجـــداول مـــن التنوير الأممي فمطالعته لآداب الأمم المختلفة تنسكب فى شرايين عقلـــه فتوهجه فيسكبه فكراً ممزوجا من لفظ جميل ... ومعنى بديع منكفئاً على فكر جيد .... فالكتابة لديه ليست ألفاظاً مرصوفة أو معاني مجهزة تُجرُّ إليها الألفاظ ... فألفاظه ومعانيه محط اهتمامه ومكمن عنايته وقد صرح بذلك حين قال " شر البلغاء من هيأ رسم المعني قبل أن يهيئ المعنـــي ، عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليـــه المعنـــي جـــراً

---

[1] الفن ومذاهبه فى النثر العربي صـــ ١٥٢ .

ويلزقه به إلزاقاً " [1] فهو لا ينتصر للفظ وكأن المعاني لا ترتدي إلا تلك الألفاظ المحفوظة ولا تحل إلا بها يقول د / السباعي بيومى عنه " زاول الجاحظ بتدبيج الكتب والرسائل فكان أعجوبة الزمان وينبوع الافتنان إن ذكر أدب العلماء فهو آدبهم وإن ذكر علم الأدباء فهو أعلمهم " [2]

فجور وحيافة الألفاظ على المعني أو العكس مفقودة فى كتابات الجاحظ وهو يعرف عن نفسه ذلك حتى إنه قال " لربما خرج الكتاب من تحت يدي محصفاً كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة " [1] .

كتابات الجاحظ الفنية عكست رؤيته المستنيرة والتنويرية فقد خطت بالكتابة العربية خطوات حيث صارت الكتابة الفنية – بكتابات الجاحظ – معاني تنسق فى خلابة ، وبيان عذب فلا يعجب بلفظ فيبحث له عن معني ... أو تؤثره دلالة فيلوي لها اللفظ لياً ، واستتبع توجيه اهتمامه للعناية الجمة بشقي الموضوع اللفظ والمعني وكان يدعوه إلى النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب " وينتج عن ذلك مراعاة الكلام لمقتضي الحال وهي كلمة جامعة . وهذا التوازن جعل كتاباته ذات سمت موضوعي وأسلوب تعبيري متميز فتلقفه المنطق والفلسفة والجدل واللسن على يد كوكبة من علماء عصره دفعه للعناية بآرائه وبراهينه ومقدماته ونتائجه . والإطار العام المسكوب فيه ذلك وجزئياته الحاوية له فالتقطيعات الصوتية والتلوين العقلي ، والتلوين الصوتي والواقعية والاستطراد يسيطر عليه ، ليزن المعني لينتخب له اللفظ المكاني مما

---

[1] رسائل الجاحظ نقلاً عن النثر الفني صـ ١٦١ .

[2] تاريخ الأدب العربي جـ ٣ صـ ١٣٢ .

[1] رسائل الجاحظ نقلاً عن النثر الفني صـ ١٦١ .

انتهي به " إلى أن يعشق الأداء الدقيق لمعانيه وأن يعشق معه الوصف الحسي الصحيح لما شاهد " .

رؤية الجاحظ تشكلت فى أربعة مظاهر رئيسة هي:

الواقعية – الاستطراد – التلوين العقلي – التلوين الصوتي

أولاً : الواقعية ... يرى أن الأمانة والنقل عن الطبيعة سواء فما نقله ويتحدث عنه يستخدم له الألفاظ الدالة عليه حتى وإن كانت تشير إلى بعض العورات والسوءات وحينما سئل فى ذلك أجاب بأن العازف عن الواقع ، اللاجئ إلى التحسين والتجميل منافق داجن ونفي عن نفسه ذلك ، وقال إنه ينقل مصوراً عصره ما فيه من أحداث ومحدثين ولا يغير أو يبدل إلا بقدر ما تحتاجه الكتابة الفنية لذا .... عدت أعماله مرجعاً حاوياً لكل أحداث عصره بمتناقضاته ومتغيراته فيه أخبار الأمراء والأشراف والكبار والحكماء كما فيه أخبار الصعاليك واللصوص ، السوقة والحمقى وسجل ما حوي المجتمع من طهر ووزر ، لهو وجد ، ودين وزندقة ... شأن العصور وشأن الأحياء فهو عدسة التقطت ما حوله بأمانة وأدته بصدق وصراحة فواقعية الجاحظ ظواهر تفرد بها .

تسجيل الواقع كما هو فلم يستعن بذاكرة التاريخ وحافظة الأذهان ، بل استمد من مفكرة الواقع مادته فسجل كلام المتضادين ومواقفهم أشراف وأخساء ، عقلاء ونوكى ، فضلاء ولصوص .. أثبت كلامهم كما نطقوا به سجله ، وما عبروا به أثبته حتى وإن حوي لحنا ظاهراً أو مخالفة جلية وعد ذلك من توابع الواقعية وإحدى التزاماته فى لزوم الواقعية وعدم الزيف أو المخاتلة .

يقول مدافعاً " وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معـرب أو لفظاً معدولاً عن جهته فأعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعـراب يـبغض هذا الباب ويخرجه من حده إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي الـبخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه " [1]

الحقيقة ... التعبير بالحقيقة عزوفاً عن الاسـتعارات والـشبهات مـن مستلزمات الواقعية فلم يلجأ إلى التصوير إلا ليوضح الواقع ويقربـه لا ليزينه ويجمله ... فالكتابة عنده معـان تـؤدي فـى دقـة لا زخـارف وتشبيهات تقف سجفا تحول دون الفهم والاستيعاب للمعـاني أو تحـدث مخاتلة عن الوقائع والحقائق .

ومن كثرة حرصه على نقل الحقيقة بواقعيتها كان يجيد التصوير ويلتقط ما حوله ويقصه بقدرة لافتة على السرد والحكي وفـى وصـفه وسرده نجد تفاصيل وجزئيات ... حقائق ووقـائع والتـصوير عفـوي يعكس دقة بعيدة عن التهويل والتضخيم .

الاستطراد : إن الخروج من باب والدخول من أخر ثم عودته إلى الأول ثم الانعطاف على جديد سمة غالبة على مؤلفات الجـاحظ فمـن يطـالع الحيوان ثم البيان والتبيين يجد التشعب المفضي إلى التـشعث مـسيطراً على كتاباته ، فلا يبتلعه الموضوع الذي يتحدث فيه بل يمسك زمامه إلى جواره يتحدث عن أشياء أخرى وإلى جواره ينطلق إلى أبواب متنوعة .

وقد علم الجاحظ عن نفسه تلك الصفة واحتج بأنه يهـرب مـن الملل والسآمة التي تجلبها أحادية الموضوع حتى وإن حسن "

---

[1] البخلاء جـ ١ صـ ٧٨ .

" فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها " .

ثم يحتج ثانية بأنه يقتفى أثر المؤلفات السابقة في سير الحكماء " إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء " مبرراً انتقاله بين أفانين المعرفة وجداول الملح ، وأنهار الأخبار والحكايات . وربما الأوقع لهذا الاستطراد أو الظاهر ما صرح به الجاحظ نفسه من رجوعه إلى العلة التي ألمت به وقلة المعاونين وفتور النفس وتقلبها إذ يقول فى صدر حيوانه " قد صادف هذا الكتاب من حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أول ذلك العلة الشديدة ، الثانية قلة الأعوان – طول الكتاب " .

لرجاحة عقل الجاحظ وفكره المستنير خاطب المخاطب يستل سخيمة نفسه من الوجد عليه لاستطراده المتوالي فيقول " فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكره " فقد قدم لنفسه عذراً " بعد أن صورت لك حالي التى ابتدأت عليها كتابي " .

فقد ضعف ذهنه لضعف صحته ... حتى وإن كان يعرف أنه منوط به ذكر أسماء الخطباء على الترتيب ثم التفصيل والتبويب فيقول : " ولكني لما عجزت عن نظمه وتنفيذه تكلفت ذكرهم فى الجملة " لكنه قدم العذر .

وإن كنت أرى أنه بالإضافة إلى الاعتلال الجسدي فإن العقل كان يحمل المعارف والفنون والأخبار والحكايات فما يكاد يمسك بيراعه حتى تنثال عليه الأفكار وتتزاحم الآراء من كل حدب وصوب فتدلف إلى قلمه فى غير نظام ولا سياق مطرد .

التلوين الصوتي : الإيقاع والتناغم يلحظه كل مطالع لكتب الجاحظ فهو على بعده عن البديع والسجع الذي لا يتفق مع كتاباته المطولة ، لكنه حريص على الجمال الإيقاع المتبدِّي في شيئين .

التقطيع الصوتي ... التكرار والترداد الموسيقي .

يقول عن الكتاب " إن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمهات العلم مجموعاً كان له غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه وكان له نفعه وعلى صاحبه كده ، مع تعرضه لمطاعن النحاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين الحسدة " [1] .

فهناك اختلاف فى مقاطع وتنوع وتلوين فطلب الجاحظ للجمال الموسيقي الإيقاعي دفعه إلى التكرار أو الترادف ، فالموسيقي أساسية فى جواهر عباراته وأعراضها وما يسمها فى باطنها وظاهرها " على حد قول د / شوقى ضيف [2].

والتكرار أو الترداد أو التأكيد على الفكرة وإعادة صياغتها وقولها منهج المتكلمين فى محاضراتهم وسوق أحاجيهم بمناظراتهم ليضفوا ضروباً من الجمال على أساليبهم . فمنهج الجاحظ منهجهم وما أضفاه على أسلوبه من تقطيعات وتوقيعات وتكرار أحاط أسلوبه بهالة الأداء الموسيقي إلى جوار الأداء المعنوي .

هذا بالإضافة لاتكائه على الإملاء فى تسجيل كتبه أكثر من الكتابة بنفسه مما جعل بعض مواضيعه بها إفراط فى العرض أو تفريط

---

[1] الحيوان جـ ١ صـ ١٠ .

[2] النثر الفني صـ ١٧١ .

فى الحصر لكن كل ذلك لم يمنع وجود تلوين صوتي اكسب أسلوبه تميزاً ملحوظاً .

التلوين العقلي : أو التحاسين العقلية حيث يضيف الأفكار الفلسفية والآراء العقلية والبراهين والأقيسة المنطقية إلى عمله الفني ويصبغ عليها فيفيد الاتجاهين الآراء والأقيسة العقلية يتوسع فى مفهومها وتتشعب دلالتها ويضاف إلى قيمتها العقلية قيم فنية طريفة كما يفيد القضية التي تتحدث عنها من إمدادها بشيات عقلية وآراء منطقية تزيدها طلاوة واقتداره على الوصول إلى المتلقي .

وصرح بذلك حينما خلط أو جمع بين الفلسفة أو المنطق حين قال " ورأيت ناساً من فلاسفة المتكلمين " .

وقال عن الحيوان إن هذا الكتاب " أخذ من طرف الفلسفة " فحديث الجاحظ يعكس الذهنية المستنيرة المتفهمة لما يدخله الجدل والحوار من ملاحة وطرافة تجذب المتلقي وتسهل الإقناع والفهم .

ولا شك أن تعلمه على يد النظام وما عنته مدرسته من القدرة على المجادلة والمحاورة والاستعانة بالمنطق لتدعيم رأيه سواء أكان صحيحا هذا المنطق أو مغلوطا وهو ما كان سبب إصابته بالفالج حين جادل يوحنا بن ماسويه فى نوع الطعام حين قدم مضيرة عقب سمك فامتنع يوحنا من الجمع بينهما فدلف الجاحظ إلى جدله المعروف واحتمي ببرهانه اللغوي قائلاً : أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له ، فإن كان أحدهما ضد الأخر فهو دواء له ، وإن كان من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا ، فقال يوحنا والله ما لي خبرة بالكلام ولكن كل يا أبا عثمان وأنظر في ما يكون في غد " فما كان من الجاحظ إلا أن امتثل لمنطقه المغلوط وطعم "ففلج

فى ليلته فقال هذه والله نتيجة القياس المحال " فالجاحظ لسن جدل يبدي الانتصار لرأيه ويتيقن إلزام الخصم بالحجة والمتلقين بالإقناع .

تفكير الجاحظ قام على المنطق والاستدلال والقياس يصبه فى هروب من تلاوين الصوت وتحاسينه باقتداره على الجمع بين الجمالين : جمال الصوت وجمال المنطق ، فالحجج المقنعة المسوقة فى أسلوب متميز .

عقلية الجاحظ عقلية منفردة جمعت بين التفكير العقلي الفائض بالقدرة على البرهان والاستدلال مع " التفكير الفني وما يشفع به من قدرة على تقطيع الصوت ، وما ينطوي فى هذا التقطيع الفني من تكرار وترداد وبذلك يلتئم هذا الفن الجاحظي الذي يشيع فيه جمال العقل كما يشيع فيه جمال الصوت – على حد قول شوقى ضيف – فالعقل عند الجاحظ المنبع الذي يمد جداول عقله وتفكيره ولسعة ثقافته وعمق إطلاعه صبغ عمله بكثافة المقابلة فى المعاني والأفكار فالجمال يسيطر على التفكير ثم ينتقل للتعبير فالتجانس تام بين اللفظ الموسيقي الرشيق ، والمعني العقلي الدقيق فالمتعة تعم العقل والفكر كما تقبض على الحس والشعور لدي المتلقي .

وحينما يكتب الجاحظ فهو يبين عن ثقافة واسعة وفكر عميق يتناول الموضوع بمجسات منوعه من الناحية النفسية ، والدينية ، الاجتماعية يقول عن فوائد الضحك فى البخلاء " وإذا كان البكاء مادام صاحبه منه فإنه فى بلاه ، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ " ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع . وشبه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضرع كذلك فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً

من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره " وأنه هو أضحك وأبكي وأنه هو أمات وأحيا " فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وأنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيراً وهو شيء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العربي تسمي أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق . وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شئيم المحيا وهو مكفهر أبدا وهو كريه الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جدا والضحك وقارا [1] .

وهو فى تناوله لنحلة الضحك مهد إليها بذكر نقيضه وهو البكاء وكيف إن له من الآثار السيئة الكثير ، ومن المعاقب المفجعة العديد .

---

[1] تاريخ الأدب العربي صـ ١٠٠ – ١٠١ .

تكلم عن الضحك وبسط فيه القول مدللاً على أهميته من الناحية النفسية للضاحك حيث أنه يفرج الهم ويجلي الصدر ... والمتلقي للضحك ينشرح صدره وتنبسط أساريره وهو ميزه دينيه ودلل على تميزها لأن المولي نسبه لنفسه حين قال " وإنه هو أضحك وأبكي وأمات وأحيا " ولا ينسب للمولي إلا كل جميل نافع وهو مفيد للناحية المجتمعية حيث يعلي من شأن البهجة والمبتهجين ويطلق الأوصاف الحسان على ضاحكي الثغر متهللي الوجه .

الأسلـــــوب :

إذا أخذنا النص المتقدم المتصل بفلسفة الضحك نجد أن أسلوب الجاحظ فيه يغلب عليه الجملة الخبرية ، ماعدا جملتين بكل منهما استفهام أحدهما حقيقي ، والآخر خرج للتعجب مطالباً المستمع بالإقرار فيقول ... فما ظنك بالضحك ... ؟ وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ؟.

أما الجمل فجاءت على غير عادة الجاحظ من المزاوجة فجاءت الطويلة مضمنة نصا قرآنيا ... وحكاية عن رسول الله وصحابته .

وكان الجاحظ فى عصر مليء بالكواكب المنيرة فى الأدب واللغة والفكر فكتب إليه أبو القاسم إسماعيل بن عباد الملقب بالصاحب : " وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر ، بوصف ما شاهد من عجائبه وعاين من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها ، واستجابة أدوائها لها متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك وإذا فكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب إليهم الغرر ،

وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته وحصولي على مساعدته ، ومن رأي بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعتب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله كما لا شيء أبلغ فى مفاخره وأنفس فى جواهره ، من وصف الأستاذ له ، فإني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال والسحر الحرام لا الحلال وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكره سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لاً يفضل عن التبرد وثمدا لا يكثر عن الترشف .

وكم من جبال جبت تشهد أنك الـ جبال وبحر شاهد أنك البحر[1]

رداً على رسالة الجاحظ له فهو يعلق على مكاتبة الجاحظ أولاً يصف البحر وفى وصفه – الذي يتحدث عنه الصاحب – ينوه على عقلية الجاحظ الإحصائية والذهنية الحصرية ، والقدرة التابعية حيث رصد ما يحصل للأربع مرائي البحر نفسه ، وما يمور فيه من المراكب ، وما يتعلق بها من آلات وما يسيرها من رياح ، وما تحمله من متاع وأناس ، ثم يتطرق للحالة النفسية التي تسود المسافرين فالطمع يدفعهم لاحتمال الأهوال أملاً فى عطاياه ونواله ... والجزء الثاني قفزه سريعة من وصف البحر المائي إلى البحر العلمي لأستاذه الجاحظ حيث ضمن الكلام تهوينا من شأن البحر الحقيقي بما وعى وما منح وإن الفضل اكتسبه من مجرد الوصف المميز للأستاذ له .

ثم يتحدث عن خصال بحره العلمي – الجاحظ – بأنه غابت عنه حقيقة نفسه وغفل عن درجة كماله ولو أدرك ذلك ووعاه وفهمه

---

[1] تاريخ الأدب العربي صـ ١٠٦ .

وأحصاه لتبين له أن البحر إلى جواره الماء القليل الذي ينفذ بالاستعمال والأخذ منه .

سمات كتابات الجاحظ : لم يشرع الجاحظ فى تسجيل فكره ورصد آرائه وأقواله إلا بعد " استواء أفكاره وانتظام آرائه وأقواله فيما دونه فى كتبه ومؤلفاته بحيث لا يظهر فيها أثر لتبدل الأفكار أو تعارض النظريات .... مما جعل لتراثه تلك الخاصية الفريدة التى تتمثل فى سريان روحه وبروز شخصيته ومزاجه ووضوح بصماته التى تبدو وبجلاء فى كل ما كتب على تنوعه وتشعب فنون على حد قول د / أحمد عبد الغفار عبيد " [1].

إن الجاحظ " صاحب فكر مستنير وعقل متحرر وقد أفاد من فكره وعقله بالإضافة إلى ذوقه اللماح وخبرته الطويلة بتراث العرب الأدبي ، وإطلاعه على آداب الأمم المتصلة بهم فظهر أثر كل ذلك فى الأصول التى قررها ومنحها تلك الخاصية الفريدة .

كتابات وآراء الجاحظ النوعية تنبض بعبقرية المكان فقد تكلم فى كثير من المسائل اللغوية ، والبصرة كانت محل علماء الكلام وتأريخه لكثير من الظواهر الأدبية التى نبتت فى البصرة وكتاباته عن الشعراء وتحليله لهم وآراءه فيهم دالاً على انكفائه على المحصول المروى لهم والذي يتناقل فى البيئة البصرية ويذاع انتقال النار ... طريقة عرضه تتسم بالعقلانية وسوق مقدمات لابد أن تفضي إلى نتائج يدل على تأثره بمنهج علم الكلام الذي نبت فى البصرة .

---

[1] المدرسة البصرية وجهودها فى نشأة النقد فى القرن الثالث الهجري / ٢٤٩ .

أفاض الجاحظ فى الحديث عن الكتابة والخطابة والشعر ويستشهد بهذه الأنواع فى كتاباته موضحاً السمات المشتركة بهم وكان دائماً يردد .

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

على الرغم أن الشعر مستودع الأحاسيس والاهتمام به توالى عبر العصور ، إلا أن الجاحظ صرف جل اهتمامه وعنايته للخطابة والكتابة .

وأرى أن السبب الحقيقي هو الفسحة التى يبيحها النوعان الأدبيان لاستعراض ثقافة الجاحظ المنوعة الاتجاهات العميقة الجذور ، مما يعكس رؤيته التنويرية .

المنبع الذي يصدر عنه الجاحظ محدداً وواضحاً ويصب فى جداول منوعة ، لذا نراه حينما يسوق الرؤية النقدية يعززها ببيت شعري .. أو قصة أو حدث ما .

استغرق النقاد قبل الجاحظ المدارس والأجواء الثقافية المسيطرة فى عصره كما حدث مع الأصمعي وابن سلام حينما تبدى تأثرهما بالبيئة اللغوية والنحوية ، الذي تبدي فى مؤلفاتهما الحاوية لأرائهما الفكرية ... لكن الجاحظ بفطنته وذكائه استفاد من الثقافات المنوعه حوله فى نظم رؤيته النقدية التى وسمت بالسعه والعمق واستقصاء الظاهرة الأدبية والحكم عليها والتعليل لمظاهرها

الموسوعية التى تمتع بها الجاحظ ، والثقافة المنوعه التى أتخذت من عقله مكاناً ومقرا مكناه من امتلاك ما تفرد من الخصال وما تماز من الصفات ، وهو يحدد موضوعه ثم يبدأ فى صوغه وحوكه بشكل متميز

ولاشك أن " التنوير يرتبط بالإبانه والإبانه والفصاحة لابد أن يمتلكهما من حمل على عضده مهمة فتح القلوب الغلف ، والأعين العمي ، والآذان الصم .... لذا كان يتوسل بكل شيء وأي شيء ليجذب المطلعين على أعماله فتارة ينسبها لغيره ويتحدث بها كأنه راويها ، وتارة أخرى يدعي سقوط الموضوع بين يديه وأنه قائم على نشره .

لذا حديثه عن البلاغة لم يأت دفعة واحدة ، ولم يتناولها مرة واحده ... ويبثها دفعة واحده فى إحدى فى مؤلفاته بل نجدها متناثرة فى مؤلفاته " قال أبو عثمان [1] : والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه ، بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان ، بعد أن قد فهمنا معني كلام النبطي الذي قيل له : لم اشتريت هذه الأتان ؟ قل : " أركبها وتلد لي " وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً .

وقد فهمنا قول الشيخ الفارسي حين قال لأهل مجلسه : " ما من شر من دين " وأنه قال حين قيل له : ولم ذاك يا أبا فلان ؟ قال : " من جري يتعلقون " وما نشك أنه قد ذهب مذهباً ، وأنه كما قال

وقد فهمنا معني قول أبي الجهير الخراساني النخاس ، حين قال له الحجاج : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ قال : " شريكاننا فى هوازها ، وشريكاننا فى مداينها . وكما تجئ تكون " قال الحجاج : ما تقول ، ويلك ! فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطاء وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : شركاؤنا

---

[1] البيان والتبيين جـ ١ صـ ١٦١ : ١٦٢ .

بالأهواز وبالمدائن ، يبعثون إلينا بهذه الدواب ، فنحن نبيعها على وجوهها .

وقلت لخادم لي : فى أى صناعة أسلموا هذا الغلام ؟ قال : " فى أصحاب سند نعال " يريد : فى أصحاب النعال السندية . وكذلك قول الكاتب المغلاق للكاتب الذى دونه : " اكتب لي قل خطين وريحنى منه "

فالجاحظ استطاع إيجاد طريقه جديدة فى النثر من تقسيم الجملة لقطع صغيرة كالشعر ... وأدخل الدعاء " وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ... وقد سلك الكثيرون ممن أتوا بعده مسلكان من تقطيع الجمل وتصدير الدعاء للمتلقي يقول حمزة الأصفهاني فى مقدمة ديوان أبى نواس الذي جمعه .

سألتني أبقاك الله وأعلى قدرك وبلغك أقصى أماليك فهو يدل على اقتفائه أثر الجاحظ والسير على منهجه يقول جورج زيدان وهذا الأسلوب فى الإنشاء ينسب إلى الجاحظ وقد توخاه معاصروه فنسجوا على منواله "[1] .

ثم يشرح الجاحظ محاولاً تنوير الفكرة وتضويئها بشكل أوضح حيث شعر بحسه الفني ، وثقافته اللغوية ، وحسه المجتمعي أن الموضوع يحتاج إلى إضافة شرح ومزيد تفصل فيقول :

" فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معني القائل ، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب ، كله سواء ، وكله بياناً . وكيف يكون ذلك كله بياناً ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام ، لما عرفه .

---

[1] تاريخ أداب اللغة العربية جورج زيدان صـ ١٨ جـ ١ دار الهلال .

ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومى والصقلبى ، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم . فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بضغاء السنور كثيراً من إراداته . وكذلك الكلب ، والحمار ، والصبى الرضيع " .

كذلك الخطابة إذا كانت البلاغة مرتبطة لحد كبير على المتكلم من قدرته على التنوير ، واستطاعته الإبانة فالبلاغة هى استنباط الأسس والمعايير الجيدة وتحديده بحيث يتمكن شداة الأدب بعد تطبيقها من إنتاج أدب جيد وهي مختلفة عن النقد الذي يتبع النتاج الأدبي ويرصد أوجه التقصير والكمال ويضع تلك النماذج أمام المهتمين أدباء – نقاد – قراء – لتعريفهم بالنماذج العليا .

نجد الخطابة كفن قولي تتوسع فى دائرتها التنويرية بشكل أكبر إذ ترتبط بعناصر متعددة وكل عنصر علق به معايير كثيرة فبالنسبة للخطيب أوضح سمته وسماته صورته ومنطقة وبالنسبة للمخاطبين أوجب ضرورة مراعاتهم ثقافياً ومكانياً زمانياً وذهنياً فلا يخرج عن إطار اهتماماتهم ولا يتعالي فى خطبته على فهمهم ولا يخوض فى قضايا لا تخصهم أو لا تكون محط اهتمامهم ، كذلك لكي تقوم الخطبة بدورها التنويري لابد أن تكون سليمة من الأخطاء مرتبة الأفكار مزينة بالقرآن والحديث والشعر ، ومن عرضه للخطابة تناول نماذجه بشكل انتقائي من خطب للرسول والصحابة . والملاحظ أنه أورد خطباً كثيرة لكن تعليقه عليها لم يكن يوازنها ربما لأن أدرك أن الخطبة آنذاك منيرة مفصحة عن نفسها فلا لفظ غامض ولا معني متوارٍ .

المبرد والثقافة العربية:

ولد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ... الثمالي الأزدى المعروف بالمبرد سنه عشر وثمانية بالبصرة ... ونشأ وتتلمذ على يد جلة اللغويين والأدباء مثل المازني ، والسجستانى ، فشب والمسائل اللغوية قد تقررت ، والقضايا قد استقصيت واشتد عود المذهب البصري منتصباً متحدياً ، فأوغل فيه المبرد ناهلاً ومستوعباً ، ولا غرو فقد ترك السابقون رصيداً لغوياً منوعاً فى الأفراد والتركيب ولم يدخروا جهداً فى جمعها من شفاه الأعراب أو استقصاءً من البوادي .

المبرد ينتمي إلى المدرسة البصرية ، فلا غرو أن تكون الناحية اللغوية والنحوية الصرفية ذات بال فى حديثه لكن ذلك لم يحل دون وجود لفتات فنية بارعة ، ولمحات نقدية صائبة فرغم سيطرة الجانب اللغوي إلا أن آراءه تلك تعكس وجود (حاسة نقدية متذوقة تنفعل بالجمال وتهتدي إلى موضعه)على حد قول د / أحمد عبيد [1]

أمتلك المبرد خصالا فريدة مكنته من إفحام الخصوم وغلبة المتناظرين ولم يكن أحادى المعرفة ، غابت عنه أشياء وعلم شيئاً بل كان يتحدث فى كل شيء وعن أي شيء حتى إن الرياح بأنواعها أحاط بها علماً وحدد أسماءها طبقاً لمكان هبوبها وانطلاقها فى جمال لفظ وقوة عبارة وإحصاء للأقسام يقول المبرد فى الكامل بعنوان الرياح ومواقعها :

---

[1] المدرسة البصرية / ٢٩٦ .

" ولهذه الرياح أسماء كثيرة ، وأحكام في العربية ، لأن بعضهم يجعلها نعوتا ، وبعضهم يجعلها أسماء ، وكذلك مصادرها تحتاج إلى الشرح والتفسير ، ونحن ذاكرون ذلك في عقب هذا الباب إن شاء الله .

يقال : جنبت الريح جنوباً ، وشملت شمولاً ، ودبرت دبوراً ، وصبت صباً وسمت سموماً ، وحرت حروراً ، مضمومات الأوائل .

فإذا أردت الأسماء فتحت أوائلها ، فقلت : جنوب ، وشمول ، وسموم ودبور ، وحرور .

ولم يأت من المصادر شيء مفتوح الأول ، إلا أشياء يسيرة ، قالوا : توضأت وضوءاً حسناً وتطهرت طهوراً وأولعت بشيء ولوعاً ، وإن عليه لقبولاً ، ووقدت النار وقوداً ، وأكثرهم يجعل الوقود الحطب ، والوقود المصدر " .

ويقال : الشمال ، على لغات ست ، يقال : شمال ، وشمأل ، وشمال

ويقال للشمال : الجربياء ، قال ابن أحمر :

بجو من قسا ذفز الخزامى تداعى الجربياء به الحنينا

ويقال للجنوب : الأزيب

ويقال للصبا : القبول ، وبعضهم يجعله للجنوب ، وهو في الصبا أشهر ، بل هو القول الصحيح والإير ، والهير والأير ، والهير ، قال الشاعر .

مطاعيم أيسار إذا الهيرهبت[1]

لكي ينير فكرته ويوضئها أمدها بكل ما تحتاج فالأبيات التى يستشهد بها غزار ، وهناك لمحات صرفيه فتبين أن اختلاف شكل آخر

---

[1] الكامل فى اللغة والأدب صـ ٤٥ – ٤٦ .

الكلمات يغير المعني يقال جنت : حزوراً فلم يخف عليه اختلاف المعني لاختلاف المبني ووضوحه .

ثم يتوسع فى شرح معاني رياح الشمال الجنوب الصبا وقد ضوء ذلك بأسلوب جيد .

وتناول الكامل يختلف باختلاف الموضوع فقد يظل على وتيرة واحدة فى التناول حيث يفحص زاوية فيركز على التعبير الصرفي وربما يربط بين الصرف والمعني يقول من أخبار لبيد " وكان لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب شريفاً فى الجاهلية والإسلام قد نذر ألا تهب الصبا إلا نحر وأطعم حتى تنقضي . فهبت فى الإسلام وهو بالكوفة مقتر مملق ، فعلم بذلك الوليد بن عقبه بن أبي معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف – وكان واليها لعثمان بن عفان وكان أخاه لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس وأم أروى البيضاء بنت عبد المطلب – فخطب الناس وقال : إنكم قد عرفتم نذر أبى عقيل ، وما وكد على نفسه ، فأعينوا أخاكم ، ثم نزل فبعث إليه بمائة ناقة وبعث الناس ، فقضى نذره ففي ذلك تقول ابنة لبيد :

إذا هبت رياح أبي عقيل دعوانا عند هبتها الوليدا

ومن جعل الشمال والجنوب أسماء لم يصرفها إذا سمي بشيء منها رجل ، لأنك إذا سميت رجلاً مذكراً باسم مؤنث على أربعة أحرف فصاعداً لا علامة للتأنيث فيه لم تصرفه في المعرفة وصرفته فى النكرة ، نحو عناق ، وأتان ، وعقرب . وإن كان نعتا انصرف ، لأنك إذا

سميت رجلاً مذكراً بنعت مؤنث لا علامة فيه صرفته لأنه مذكر نعت بـــه المؤنث . نحو حائض . وطالق . ومتئم ومرضع [1].

وقد اتسم المبرد بخصال فى تناول الموضوع فريدة ، أعانـــه علـــى ذلك ذاكرة حافظة لاقطة تعكس ثقافة مستنيرة أحاطت بكثير من المعارف والفنون ، وهذه الذاكرة لفتت نظر كثيرون ... فاتهم فى صـــدق حتـــى انتصب مجموعة له ليبلوا صدقه " حدثني أبو عبد الله بن المفجع قـــال : كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه فيها يتهم بالكذب فتواضعنا علـــى مسألة لا أصل لها نسأله عنها لننظر كيف يجيب وكنا قبل ذلك قد تمارينا فى عروض بيت الشاعر

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

فقال بعضنا هو من البحر الفلاني وقال آخرون هو من البحر الفلاني فقطعناه وتردد على أفواهنا من تقطيعه (ألق بعض) فقلت له أنبئنـــا – أيدك الله – ما القبعض عند العرب ؟ فقال المبرد القطن – يـــصدق ذلـــك قول أعرابي .

" كأن سنامها حشي القبعضا "

قـــــال فقلت لأصحابي هو ذا ترون الجواب والشاهد إن كـــان صحيحاً فهو عجيب وإن كـــــان اختلق الجواب وعمـــل الـــشاهد فهـــو أعجب [1] !!

ولغزارة علم أبي العباس المبرد وسعة ثقافته ورؤيته التنويرية أفاض فى مختلف المعارف وشتى العلوم فله مؤلفات تبلغ نيفاً وأربعين كتابـــاً

---

[1] الكامل فى اللغة والأدب صـــ ٤٨ – ٤٩ .

[1] المرجع السابق صـــ ٢٩٨ نقلاً عن تاريخ بغداد جـــ ٣ صـــ ٣٨٠

وقيل وصلت للخمسين معظمهما فى اللغة والنحو ويكفي أنه عكف علـــى كتاب سيبويه يشرح ويستجلي مبهمة ويستنطق خافيه وأودع عــصارة عقله فيما يزيد عن خمسة كتب : المدخل فى ســيبويه ، شــرح كتــاب سيبويه ، كتاب الرد على سيبويه : كتاب الزيادة المترعــة مــن كتــاب سيبويه ، معني كتاب سيبويه ... فقد أمتلك رؤية محــدده ســاقها فــى مؤلفاته ، فوجود المبرد كان ممثلاً لوجود الناقد اللغوي الممتلئ بالثقافة القديمة ، والمعروف أن تلك الحقبــة حفلــت بــأعلام " ذووا مــشارب متباينة فيهم اللغوى المشبع بروح القديم كأبي العباس المبرد أو المتكلم المتأثر بشتى ألوان الثقافات كالجاحظ وذو الثقافة الإســلامية الخالــصة كابن قتيبة والشاعر المحدث كابن المعتز على حــد قــول د / إحــسان عباس [٢] .

ومما زاد فى شهرته ووسع فى معرفته تداول كتاب الكامل فــى اللغة والأدب الذي استوعب فكــره وآراءه ولاشــك أن طــابع التعلــيم والتلقين وشرح المسائل وتيسير القواعد وتوضيح الأصول غلــب علــى تراث المبرد – على حد قول د / أحمد عبيد .

وإن كنت أرى أنه فى ذلك منتهجاً للنهج وملتزماً الجــادة التــى سلكها غيره ، وقيل أنه أطلق عليه لقب المبرد حينما سأله المازني عن بعض مسائل كتاب الألف واللام فأجاب بأحسن جواب فقال له المازني قم فأنت المبرِد أي المثبت للحق فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء

---

[٢] تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القــرن الثــامن الهجرى دار الثقافة بيروت صـــ ٨٩ ط ٥ – ١٩٨٦ .

ونظرته الاستباقية تلك وعقله المتفتح مكناه من إيجاد مسائل وقضايا لم يسبق إليها بل تعاور عليها بعده العلماء بالتنظيم والتصنيف والتبويب والترتيب فقد ساقها بأسلوب حديث جذاب (من خلال إطار يميل إلى ناحية المعني المحدث وبمعني آخر أن شواهد المحدثين لقيت منه رعاية خاصة – على حد قول د/محمد عبد المطلب [1]فقد استطاع المبرد أن يطلعنا على ثقافته من خلال حشد معارف جمة وشرحها فى أقدم مؤلف ولا تزال المبادئ والأصول التى صدر عنها المبرد فى هذه المسائل مرعية ومعترفا بها لدي المحدثين فى كتاباتهم ودراستهم على حد قول د / أحمد عبيد [1] فلاشك أنه سبق إليها ورسم معالمها ومما زادها قيمة تذييله لها بالشرح والتعليل والتعليق ، فلم يكتف بمجرد الرواية بل إن عقله المستنير أبي إلا أن يظهر فى تعليقاته المركزة الجليلة المفصحة عن الذهنية العربية المستنيرة ، فالمبرد ناقد للأدب فاقه لحقائقه متوفر على أصوله على حد قول د / أحمد عبيد [2] .

وتبني المبرد معياراً محايداً فى النقد وهو الإجادة سواء أكانت صادرة من القديم أو الجديد يقول (وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطي كل ما يستحق)[3]

---

[1] جدليه الإفراد والتركيب فى النقد العربي القديم دكتور/ محمد عبد المطلب صـ ٦٩ – ٧٠ لونجمان

[1] المدرسة البصرية / ٣٠٠ .

[2] المدرسة البصرية / ٣٢١ .

[3] الكامل جـ ١ صـ ٢٩ .

ويتبني هذا الرأي وهو أكثر النقاد الذين أنصفوا المحدثين بنظرة استباقية وقد تنازعته ثقافته الأصيلة فنجده يميل قليلاً للقديم إلا أن د/إحسان عباس التمس له العذر " ولابد أن تعذر المبرد إذا هو مال لا شعورياً نحو القديم لأنه صلب ثقافة نحوي لغوي من طرازه " [٤]

ومما يذكر للمبرد رؤيته النقدية الثاقبة حين سئل عن بلاغة كل من الشعر والنثر اتخذ ذلك منطلقاً ينير الفكرة ويضوؤها فهو لم يصدر حكماً ولم يتسرع بإبداء الرأى بل أفاض فى بسط القضية مكتملة الأركان يقول المبرد : الجواب فيما سألت : أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول فإن استوى هذا في الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعراً فلم يفضل أحد القسمين صاحبه فصاحب الكلام المرصوف المسمى شعراً أحمد لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه وزاد وزنا والوزن يحمل على الضرورة والقافية تضطر إلى الحيلة [١]

وبهذا الكلام الواضح والمنطق السهل يشرح المبرد رأيه فى هذه القضية ثم يأخذ فى سرد الأمثلة التى توضحها وتقررها يقول:

" فأما الكلام المنثور والموزون فسأخبرك بما جاء منهما فى معني وفضل أحدهما بما رسمنا على صاحبه . قال قائل للفضل بن

---

[٤] تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني الهجري حتى القرن الثامن الهجرى صـ ٨٩ دار الثقافة بيروت ط ٥ – ١٩٨٦ .

[١] رسالة البلاغة نقلاً عن المدرسة البصرية فى النقد الأدبى د / أحمد عبيد /٣٢٢ .

الربيع ابن خثيم عندما رُئي من اجتهاده وإغراقه فى العبادة وانهماكه فى الصوم والصلاة وسائر سبل الخير : قتلت نفسك فقال : راحتها أطلب ... فهذا كلام محيط بالمعني لا فضل فيه عنه ... وقال أحد الشعراء لأهله فى هذا المعني :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتكسب عيناي الدموع لتجمدا

يقول : اغترب فاكسب ما يطول به مقامي معكم وقربي منكم فهذا أحسن والأول أوضح ومثل ذلك قول الأول :

تقول سليمى لو أقمت لسرنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

وهذا الثاني واضح حسن وهو أبين من البيت الأول وقيل لروح ابن حاتم بن قبيصة وهو واقف على باب المنصور فى الشمس فقال : ليطول وقوفى فى الظل . فهذا كلام مكشوف واضح كانكشاف كلام الربيع . وأملح ما جاء في هذا المعني وأحسن قولاً قول أبى تمام حبيب ابن أوس الطائي :

آلفة النحيب كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع

وليست فرحة الأوبات إلا لموقوف على ترح الوادع

فهذا مليح حسن والأصل ما ذكرنا " .

وهذا الحكم الذي حكم به فى الشعر والنثر يستثني منه بلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .. وينوه على روعة القرآن والحديث بلوغه الحد الأعلى في الفصاحة يقول:

" .. وهذا – أعزك الله – مفاضلة بين الأشكال والنظراء فإذا جاء قول الرسول صلى الله عليه وسلم رأيته من كل منطق بائنا وعلى كل قول عاليا ولكل لفظ قاهرا . فمن ذلك أنهم قالوا فى باب تصرف الزمان وتصرم الآجال أقاويل معناها واحد وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم ــ فتفهم مسافة ما بين الكلامين واتضاع الأقاويل عن قولــه عليه السلام وإن كانت غايات من قول غيره ــ قال لبيد بن ربيعة :

كانت قناتي لا تلين لغامز فالانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحني فإذا السلامة داء

يقول : تُــقرِّبنى من أجلى .

ومثله قول النمر بن تولب:

يسر الفتى طول السلامة والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينؤ إذا رام القيام ويحمـل

وقال حميد بن ثور :

أرى بصرى قد خاننى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

ولا يلبث العصران يوما وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيما

وفى هذا المعني قال أبو الحسن : قيل لأعرابى : مات فلان أصح ما يكون فقال: أو صحيح من فى عنقه الموت ؟! .

وقال غيره :

إذا بلَّ من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذي هو قاتله

.... فهؤلاء كلهم محسن مجمل والفضل منهم لأوزنهــم كلامــاً وأسبقهم إلى المعني ، ولكن أين هذا كله من قوله صلى الله عليه وســلم " كفى بالسلامة داء " !! . فانظر إلى هذا الكلام الذي لا زيــادة فيــه ولا نقصان لا يطول المعني ولا يقصر عنه وانظر فى فخامته وجزالته يقــول كفى بالسلامة داء فأيّ كلام أوعظ أو زجر فى القلــب أوقــر ؟ إن هــذا الكلام ليجل عن أن يبلغه وصف أو يحيط به القول ثم يكمل المبــرد ... " فإذا جاء أمر القرآن نظرت إلى الشيء الذي هو أوحد والقول الذي هــو منبت ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان والداعي والبرهان وإنما وضع

السراج للبصير المستضيء لا للأعمى والمتعامي .. قال أحد الشعراء فى قوم يحملون الشعر ولا يفهمونه قولا أجاد فيه وتقدم كلام كثير من المخلوقين فقال :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

فهيهات هذا من قول الله تعالي : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم – يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ... وقد قال الأولون منا : " القتل أنفي للقتل " يقول إذا قتل القاتل امتنع غيره من التعرض للقتل فهذا أحسن الكلام من كلام مثله ... ولو اعترض معترض فقال من القتل ما يهيج القتل ويبعث عليه لكان ذاك له وإن لم يكن ما قصد له القائل فإذا جاء قول الله عز وجل : " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب " جاء ما لا اعتراض عليه ولا معارضة له ... وقوله يا أولي الألباب خطر ثان فتبارك الله الذي ليس كمثله شيء " [1]

فهذه الآراء وغيرها توضح العقلية المستنيرة التي وظفت الملكة النقدية واستطاعت فهم الأدب بشكل متحرر مكنته من إدراك مواطن الجمال ، وثقب نظرته فيه ففهم مواطنه وأسراره عاكساً وله جهداً فكرياً واضحاً يميل إلى التحليل الجزئي .

وطريقة عرضه تثبت شيئين فى النثر العربي فى القرن الثالث وطروقه قضايا جديدة ، رجاحة عقل المبرد العاكس لفهمه لأصول النقد مواكبة لفهمه لحقائق الأدب ومال إلى الإقناع والتدليل على رأيه يضم الجانب التطبيقي للنظري فلا يسوق رأياً إلا وزوده بما يؤيده من الأمثلة

---

[1] رسالة البلاغة نقلاً عن المدرسة البصرية / ٣٢٤ .

العملية وتطرق منها إلى إنزال القرآن الكريم والحديث الشريف منزلهما السامي فهما النموذج للبلاغة وغيرهما من الكلام البشرى يقاس بنـــسبة قربه أو بعده منهما .

النتائـــج

لعلنا بعد أن طوفنا مع هذه النماذج من تنويري القرنين الثـــاني والثالث للهجرة من البيئة المصرية ذات الشهرة العلمية الفذة نـــستطيع أن نستخلص الحائق التالية

١) حفلت بيئة البصرة بما ضمت من أقطاب كبار ...أول بنيـــة ثقافيـــة تبدت فيها مظاهر التنوير حيث تجلي بشكل منهجي متمثلاً في ظهور قواعد للنقد العربي وتنظير لمسائله وتحديد لمعالمه .

٢) استطاع العقل المستنير والفكر المنفتح على الثقافات المتعـــددة أن يمنح البيئة البصرية وأعلامها – مـــنهم الجـــاحظ والمبـــرد – مـــن التنظير والتقعيد لمسائل متشعبة ، وآراء متفرقـــة اســـتطاعت تلـــك البنية الاهتداء لحقائق وتمحيصها وتأصيلها ليسترشد بها المتأدبون والنقاد .

٣) فيما يتصل بالجاحظ رأينا كيف استطاع أن يكتسب ثقافات متنوعـــة ... صقلت عقله وقدحت ذهنه فالعصر سحب رداءه على حالـــه ولا شك أن اعتناقه الفكر الاعتزالي أكسبه قدرات على الجدل والمحاجـــة ، والانتصار للرأي وصياغة ذلك كله فى عبارة موجزة ومعني مكثف ولفظ مشرق يحمل ذهنية صافية ويعكس عقلية راجحة .

٤) كما استطاع الجاحظ على الرغم من هوان شأنه ، وفقر أســـرته أن يوظف همته السامقة في تعويض ذلـــك ، فعـــاش عزيـــزا حـــرا ، منتصب الهامة ، وكانت ثروته التي يعتز بها ويعـــول عليهـــا هـــي ثقافته الموسوعية ، ومعرفته الحافلة وثقته بنفسه .

٥) لا مراء في أن جو الحرية الذي عاشه العلماء ، والتشجيع الذي لاقوه من الخلفاء والولاة والموسرين كان سببا مهما في ذلك الارتقاء الثقافي والفكري ، كما لعبت حرية التنقل من مكان إلى آخر دون قيود أو عوائق في إتاحة الفرص الثمينة للعلماء وشداة المعرفة أن ينهلوا من منابع العلم ، ويقصدوا مراكز الإشعاع المعرفي في شتى أصقاع دولة الخلافة .

٦) برع الجاحظ فى تكثيف الفكرة وخدمتها ؛ إذ يمدها بكل ما يوضح مبهمها ، ويجلى غامضها ، ويظهر خافيها ، جمع الجاحظ بين الجمالين ، قبض الجاحظ على أزمة منابع عدة وضوح المنطق وقوة الاستدلال ، والقدرة على توليد المعاني واستقصاء الفكرة ، وحسن العرض وبهاء التعبير .

٧) اتسعت معارف الجاحظ وثقافاته واستطاع في اقتدار وتميز أن يعرضها بصورة مشوقة .

٨) حشد الجاحظ في رسائله ومؤلفاته كل ما يخدم موضوعه فنجد كلامه موشحاً بآي القرآن وأحاديث شريفة وأبيات جميلة ليقنع القارئ ويمتع عقله وفكره .

٩) حرص الجاحظ على الملائمة في كتاباته ، انطلاقا من قدرته البيانية ؛ فكان يراعي مقتضيات المخاطبين فيما يكتب أو يسطر فيعطى كُلاًّ ما يستحق ، فيستخدم اللفظ الجزل تارة ، والرقيق العذب تارة أخرى ،ويؤكد في غير موضع أن أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه ... وإذا كان المعني شريفاً واللفظ بليغاً ... صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة.

١٠) امتلك الجاحظ في نثره الفني مفاتيح التلوين الصوتي والقدرة على توافق الفواصل وتوازن الجمل بأسلوب عرف به ونسب إليه ، فصار النقاد والدارسون بعد ذلك يميزون هذا النمط ويقولون عندما يصادفهم أسلوب بتلك المواصفات : هذا أسلوب جاحظي .. !!

١١) أما أبو العباس المبرد وهو النجم الثاني من نجوم هذه الدراسة فعلى الرغم من اهتماماته اللغوية لم يخل نتاجه من آراء ثاقبة وسبق علمي رائع ، عُدَّ هو ونظيره الجاحظ سابقين عصرهما ، لا يقلون تجديدا وروعة فكر من رواد تأخروا عنهم في الزمن عشرات القرون .

١٢) عني المبرد بسلامة البنية وصحة العبارة اللغوية ومع ذلك فلم يبخس المحدثين حقهم ، ولم يناصبهم العداء كما فعل كثيرون سواه من علماء اللغة ، فترى نتاج المحدثين يحظى لديه بعناية خاصة لا باعتبارها شواهد لغوية وإنما باعتبارها قيماً دلالية تهيئ لقارئها نوعاً من المتعة الفنية .

١٣) اتسم المبرد بجزئية النظرة ، والميل إلى الإحصاء والاهتمام بالبنية الصرفية والأشكال النحوية ، إذ استغرقا كثيراً من رعايته ووقته ، ومع ذلك حظي الأدب والنقد منه بالاهتمام العظيم ، وكثيراً ما علق على الشواهد وأسبغ عليها فكره وفهمه فقربها للمتلقي.

١٤) على الرغم من اتساع ثقافة المبرد اللغوية فإنه كان منفتح الرأي ، تنويري الفكر ، خاضعاً لروح العصر يجاري أحداثه ويناقش قضاياه ، ويجتهد في إبداء الرأي .

المصادر والمراجع

- البيان والتبيين للجاحظ ت دعبد السلام هارون دار المعارف
- البخلاء للجاحظ
- تاريخ النقد الادبى عند العرب
- نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى د.احسان عباس – دار الثقافة بيروت – ١٩٩٦
- تاريخ آداب اللغةالعربيه جورج زيدات دار الهلال ج١
- تاريخ الادب العربى حنا الفاخورى بيروت
- جدلية الافراد و التركيب د.محمد عبد المطلب
- لونج مان فى الادب العربى
- الحيوان للجاحظ الكامل فى اللغة والادب للمبرد
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى د.شوقى ضيف دار المعارف ب.ت
- كتاب فى الادب العربى المدرسة البصرية وجهودها فى نشأة النقد فى القرن القرن الثالث الهجرى

- **رسالة دكتوراة د احمد عبيد العصر العباسى بالمشرق السباعى بيومى ط٢مكتبة الانجلو المصرية**